أمثلة من الترجمة

Reiner Engelmann
Der Fotograf von Ausschwitz. Das Leben des Wilhelm Brasse

cbj, München 2015
ISBN 978-3-446-24018-6

صفحات 13-19, 28-30, 94-96

راينر إنجلمان

مُصَوِّر أوْشِفِيتز

ترجمة: محمود حسنين

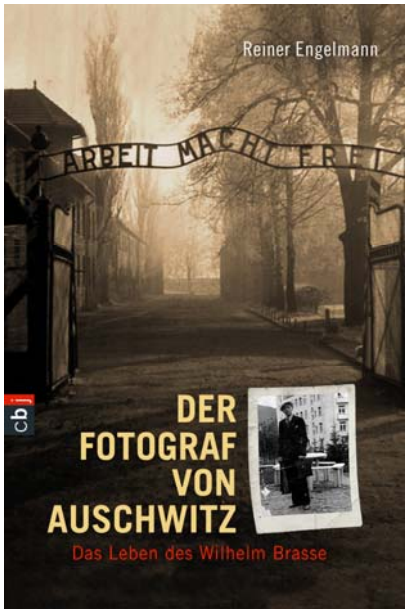

© 2015 Litrix.de

الفصل الأول: ٣١ أغسطس/ آب ١٩٤٠

في ساعة غير معلومة من عصر ذلك اليوم توقف القطار. كم مضى من الوقت وهو في الطريق؟ ثلاث ساعات؟ أم أربع؟ لم يكن من الممكن، في نظر قِيلهلم برَسِه، حساب الوقت بالدقائق والساعات، فقد كانت الرحلة طويلة طولًا لا يُطاق. فلم يستقل، لا هو ولا واحد من الآخرين، القطار طواعيةً. كانت عربات القطار، التي حُشروا فيها حشرًا، مخصصة للبهائم. وكانت تُستخدم في العادة لنقل مثل هذه الشحنات في عصر ذلك اليوم.

تكدس أكثر من ثمانين رجلًا في كل عربة من العربات. أكثر من ثمانين رجلًا من أعمار مختلفة!

كان يومًا حارًا من آخر أيام الصيف. وكان الهواء في العربات، الممتلئة عن آخرها، والمغلقة من الخارج، خانقًا. انتشرت رائحة العرق، وسرعان ما انتشرت الرائحة العفنة للبول والبراز، إذ لم يكن ثمة مكان يتسنى فيه للركاب قضاء حاجتهم. ولم يكن يتسنى لهم حتى أن يبرحوا أماكنهم. وقفوا مُثبَّتِين في مواضعهم، سقط البعض على ركبتيه من شدة التعب والإعياء، ولكنهم اضطروا إلى القيام بسرعة، أو ساندهم المحيطون بهم، حتى لا يلقوا حتفهم دهسًا بالأقدام. ولم يتمكن أحد من أن يتحرك أو يُغيِّر وضعه الذي اتخذه في البداية.

لم يؤذهم الجوع الذي كانوا يرزحون تحت وطأته—فقد كانوا قادرين على الصبر عليه بعد شهور من الاعتياد على الطعام الشحيح الذي كان يُقدم لهم في السجن—بقدر ما كان الظمأ يؤذيهم ويعذبهم ويعييهم ويصيب الكثير منهم بالإغماء أثناء السفر. ذات مرة راودهم الأمل في الحصول على الماء. فقد قلل القطار من سرعته. كم مضى من الوقت وهم في الطريق؟ أمضوا في هذا الحيز شديد الضيق وشديد الحرارة ما يكفي من الوقت كي يستحوذ التفكير في الماء على عقولهم.

حاول الواقفون بجانب جدران العربة المطلة على الخارج أن يتعرفوا عبر الشقوق الضيقة على المكان الذي وصلوا إليه. ظن البعض أنها محطة قطار مدينة كراكوف البولندية. ولكن لم يكن في وسع أحد أن يقطع بذلك. كانت مجرد تخمينات تعتمد على القليل مما كان يُرى عبر الشقوق.

توقف القطار. ملأهم الأمل، فاستجمعوا ما تبقى من قواهم، وطرقوا على الجدران. هتفوا قدر ما سمحت لهم حلوقهم الجافة طالبين الماء. أصواتهم لا بد أن تكون قد سُمعت. لا بد أن يكون قد شعر أحد في الخارج بمعاناتهم.

© 2015 Litrix.de

ولكن القطار لم يتوقف طويلًا. وطغى على هتافهم وتوسلاتهم طلبًا للماء نباحُ الكلاب وصراخ المشرفين الذين كانوا يدفعون بالمزيد من المعتقلين تجاه القطار، كي يشحنوهم في إحدى عربات القطار.

انضم الخوف والجزع إلى الحرارة والظمأ الذي لا يُطاق. إلى أين ينقلونهم؟ ماذا سيحدث لهم؟ هل سينقلونهم إلى مكان آخر فيه سجن أكبر؟ فقد كانوا جميعًا معتقلين قضوا الأسابيع الماضية في سجن تارونف أو سجن سانوك. بلغ عددهم أكثر من أربعمائة رجل: معتقلين سياسين، يهود، رجال دين. منهم الشباب والشيوخ، والآباء والأبناء، رجال يرغبون في الحياة ويأملون في المستقبل! والآن في هذا الحيز شديد الضيق في القطار، الذي يتنفسون فيه بالكاد، لم يعد في خاطرهم سوى الحاضر.

كان ڤيلهلم برَسِه واحدًا من هؤلاء الرجال. لم يتجاوز الثلاثة والعشرين من عمره. تعلم مهنة التصوير، وكان يمارسها بشغف في ستوديو عمه في مدينة كاتوڤيتسه البولندية. هكذا كان يكسب قوت يومه، وفي وقت فراغه كان يقابل أصدقاءه أو يدعو الفتيات إلى المرقص أو السينما. كان يستمتع بحياته، ولكنه شاهد أيضًا الغيوم الأولى وهي تتلبد في الأفق. ولم يكن صيف ١٩٣٩ هو البداية.

ماذا عساه أن يحدث لهم الآن؟

هل سيقدمونهم إلى المحاكمة؟ كان في مقدوره أن يستبعد ذلك الاحتمال تمامًا. فكثيرًا ما رأى في الشهور الماضية معتقلين يتم إخراجهم من زنازينهم، بصورة عشوائية، ويُعدمون رميًا بالرصاص. تذكر ڤيلهلم برَسِه وجوههم، والخوف المرتسم عليها. ولكنه لم يرغب في متابعة التفكير فيهم، ليس وهو في هذه الظروف، ليس وهو في حالة عدم اليقين هذه.

هل سينقلونهم إلى معسكر؟ معسكرات سمع عنها المعتقلون، ولكن لم يعرفوا عنها شيئًا دقيقًا، أو بالأحرى، لم يرغبوا أن يصدقوا ما سمعوه، لأنه لا يمكن تصوره ولا يمكن أن يكون حقيقيًّا.

شعر ڤيلهلم برَسِه أن القطار يسير في اتجاه الغرب. ورأى بعد فترة يافطة كُتب عليها "أوشڤيتز" في المحطة التي توقف فيها القطار بمحاذاة رصيف جانبي. فُتحت أبواب العربات، فرأى برَسِه مبنيين كبيرين، تحيط بأحدهما الأسلاك الشائكة. وفي الأركان ارتفعت أبراج الحراسة. وفي كل برج وقف رجلان من سلاح الإس الإس، يحمل كل منهما بندقية آلية. وفي الخلف رأى مبنى الشركة البولندية المحتكرة للتبغ في أوشڤنشم (الاسم البولندي لمدينة أوشڤيتز). هذه الصور الأولى انطبعت في ذهن ڤيلهلم برَسِه ولم تفارقه أبدًا.

في هذا المكان انتهت مسيرتهم، وعلى مبعدة عدة مئات من الأمتار كان معسكر الاعتقال: المعسكر الرئيس في أوشڤيتز.

© 2015 Litrix.de

أدرك برَسِه أن المشرفين ألمان من لغتهم، أو "الكَابُوهَات" كما كانوا يُدعون (جمع كَابُو، أي سجين أو سجينة من السجناء الذين كُلفوا بمهام الإشراف والمراقبة.) شاهدهم هنا للمرة الأولى. أناس في زي المعتقلين، ولكن سلوكهم يختلف عن المعتقلين الذين شاركهم الزنزانة في الأسابيع الماضية اختلافًا بيِّنًا. لم ير في سلوكهم شيئًا يشي ولو بأقل قدر من الإنسانية. هذا ما لاحظه في الدقائق الأولى، لما أخرجوهم من العربات.

"هيا، أسرعوا، أيها الخنازير القذرة!" أو "أسرعوا أيها الخنازير البولندية! هيا! هيا! هيا!" بهذه العبارات وما شابهها أخرج الكابوهات المعتقلين من العربات. وكانوا كذلك يضربونهم بالهروات الخشبية. انهالوا ضربًا على رؤوسهم وظهورهم وسيقانهم دون مراعاة لأي شيء.

"لماذا؟"

بهذه الكلمة بدأت كل أسئلة ڤيلهلم برَسِه، بلا استثناء تقريبًا، منذ وصوله إلى أوشڤيتز.

"لماذا يُهان البشر هنا هكذا؟"

"لماذا يُضربون؟"

"لماذا لا يتدخل أحد؟"

"لماذا يجعلون منا ضحايا؟"

"لماذا نسي الجناة، على ما يبدو، أنهم بشر؟ هل لا يزالون بشرًا، على الرغم من سلوكهم هذا؟

لم يستطع ڤيلهلم برَسِه أن يفهم ما يحدث له، وما يحدث للمعتقلين الآخرين أمام عينيه. أكان ذلك غير المتخيل وغير المعقول الذي كان يلمحون إليه في الأحاديث، ولا يرغب أحد أن يصدقه؟ لقد تحقق ذلك، على ما يبدو، هنا. وهو، ڤيلهلم برَسِه، صار في موضع القلب منه.

اقتيدوا كالبهائم عبر الشوارع إلى المعسكر القريب، تصحبهم الضربات خطوة بخطوة. وفوق باب المعسكر الذي دخلوه، رأى ڤيلهلم برَسِه لأول مرة الشعار النازي الشهير "Arbeit macht frei" أي: "العمل يجعلكم أحرارًا".

قادهم الطريق عبر شارع المعسكر غير المعبد إلى المبنى رقم ٢٦، حيث توجد غرف الاستحمام. وتعين على المعتقلين الجدد أن يسلموا ملابسهم المدنية وملابسهم الداخلية، وكل المتعلقات الثمينة، وبطاقات الهوية، وكل ما كانوا يحملونه. ولم يسمح لهم سوى بالاحتفاظ بفوطة وحزام.

© 2015 Litrix.de

وُضعت كل هذه الأشياء في مخزن المتاع دون أن يحصل المعتقلون على إيصال. وكان هذا المخزن يُسمى "كندا" كما عرف ڤيلهلم برَسِه في وقت لا حق من فترة الاعتقال.

لم يكن مع برَسِه، مثله مثل المعتقلين الذين جاءوا في شحنة ٣١ أغسطس/ آب ١٩٤٠ سوى الأشياء التي كان يرتديها. ولا شيء غيرها.

© 2015 cbj Kinder- und Jugendbuch Verlag in der Verlagsgruppe Random House, München

بوابة المعسكر الرئيس في أوشڤيتز. كان المعتقلون يمرون منها إلى أماكن عملهم. وعلى الجانب الأيمن كان يجب على أوركسترا المعسكر أن تعزف المارش العسكري كي يضبط المعتقلون خطواتهم وفقًا لإيقاعه.

بعد الاستحمام حصل على ملابس المعسكر: بذلة المعتقل، وملابس داخلية، وطاقية، وقَبْقَاب، أي حذاء خشبي، كان عليه أن يعتاد المشي به.

وحصل مثله مثل الآخرين على رقم، رقمه في المعسكر.

وكان أول ما خطر له بعد أن حصل على رقمه: "لم أعد ڤيلهلم برَسِه. لم أعد إلا المعتقل رقم ٣٤٤٤." وكان محقًّا في ذلك.

الفصل الثالث: الاستقبال في أوشڤيتز

حدث ذلك في الصباح الباكر من الأول من سبتمبر/أيلول ١٩٤٠. قبل الفجر، تم إيقاظ المعتقلين الذين وصلوا في اليوم السابق. سيقوا إلى الحمام المشترك، وهو مكان وُضعت فيه المراحيض بجانب بعضها البعض، بدون حوائط فاصلة أو أبواب، يحرسه "كَابُو." بعد وقت قصير، ربما دقيقتين، كان عليهم أن يكونوا قد قضوا حاجتهم، وبعد ذلك كان طعام الإفطار في انتظارهم. الطعام يتكون من حساء غامق اللون، لم يعرف أحد إن كان قهوةً أو شايًا أو ماءً ملونًا بشيء آخر، إلى جانب القليل من الخبز.

بعد ذلك تعين عليهم جميعًا أن يمضوا إلى طابور الصباح. ماذا عساه أن يكون في انتظارهم هناك؟ لم يعرف أحد شيئًا. لعلهم ظنوا أن كل واحد منهم سيُكلف بعمل ما.

بعد أن اصطفوا في صفوف، وقف كارل فريتش—ضابط كبير في سلاح الإس الإس، وقائد المعسكر في الوقت ذاته—وألقى، على حد وصف ڤيلهلم برَسِه، "خطبة ترحيب" تضمنت جملًا قليلة، لن ينساها برَسِه أبدًا.

صاح فريتش في المعتقلين: "أنتم هنا لستم في مصحة للاستشفاء، بل في معسكر اعتقال ألماني! هنا لا يبقى اليهودي إلا أسبوعين على قيد الحياة، ولا يبقى رجل الدين غير ثلاثة أسابيع، والمعتقل العادي يمكنه أن يعيش هنا ثلاثة أشهر!" توقف فريتش برهة قصيرة وتطلع إلى المعتقلين ليرى أثر جمله عليهم، ثم ختم خطبته بالجملة التالية: "الطريق الوحيد للخلاص من معسكر الاعتقال يمر عبر المدخنة!"

استولى الخوف على ڤيلهلم برَسِه وعلى المعتقلين الآخرين. لم يريدوا أن يصدقوا، أو لم يستطيعوا أن يتصوروا، أو لم يريدوا أن يدركوا ما سمعوه. كانوا يعرفون عدد الرجال الذين تجمعوا في أرض الطابور. وفي أثناء فترة اعتقالهم القصيرة هذه، كانوا قد رأوا معتقلين آخرين، كانوا كثيرين، لم يتمكنوا من تقدير أعدادهم. هل سيموتون كلهم؟ لا يمكن تصور ذلك! وماذا يعني بقوله "طريق الخلاص يمر عبر المدخنة"؟ عبارة مسكوكة؟ جملة قيلت والسلام؟

ولكن كارل فريتش، الضابط الكبير في سلاح الإس الإس، لم يكن من الرجال الذين يدعون الشك يتسلل إلى ما يقولون. كانت نبرة خطبته غاية في الحسم والحزم.

كان بعض المعتقلين، ومنهم ڤيلهلم برَسِه، منشغلين بالتفكير في معنى ما سمعوه لتوهم، حينما سمعوا فريتش يصيح آمرًا: "فليتقدم جميع اليهود الوافدين إلى الأمام."

© 2015 Litrix.de

كاد ڤيلهلم برَسِه ألا يصدق ما حدث. فقد أراد ضابط الإس الإس، على ما يبدو، أن يترجم كلامه إلى فعل ويستعرض قوته.

الكابوهات الألمان، الذين كانوا حاضرين طوال الوقت، أوقفوا المعتقلين اليهود في صفوف، ثم هجموا بهرواتهم الخشبية الثقيلة عليهم وأوسعوهم ضربًا. صرخ المعتقلون وحاولوا تفادي الضربات وحماية أنفسهم بأيديهم وأذرعهم على قدر ما استطاعوا. تدفق الدم من الجروح في رؤوسهم وأجسادهم. وإزاء ما بدا من قلة حيلتهم، ازداد غضب المشرفين وشدة ضرباتهم.

كان فاصلًا قصيرًا، مشهدًا قصيرًا، دقائق معدودة ربما، وقعت أحداثه هناك. وحينما شاهد ڤيلهلم برَسِه نهايته، رأى ستة رجال تكومت جثثهم على الأرض.

في الأيام التالية، قُتل الكثير من المعتقلين اليهود. تعرف ڤيلهلم برَسِه على بعضهم، رأى أو سمع كيف انهال عليهم المشرفون ضربًا، وفيما بعد كان يشاهد جثثهم.

© 2015 Litrix.de

الفصل التاسع عشر: تَشَسْوَافْا كْفُوكَا

لاحق منظر هذه الفتاة ڤيلهلم برَسِه أيامًا، بل أسابيع. صور كثيرة كانت تشغله، وتعشش في أفكاره، ولكن صورة هذه الفتاة لم تفارقه. كان يدرك أنه ينبغي ألا يترك المجال لمشاعره تجاه مَنْ يُصورهم. فلن يتحمل ذلك.

في ١٣ ديسمبر/كانون الأول من عام ١٩٤٢ نُقلت تَشَسْوَافْا كْفُوكَا مع والدتها إلى معسكر الاعتقال "أوشڤيتز-بيركناو". كانتا من قرية في جنوب شرق بولندا.

صُوِّرت تَشَسْوَافْا كْفُوكَا، مثل معظم المعتقلين في معسكر أوشڤيتز-بيركناو في وحدة التسجيل في المعسكر الرئيس في أوشڤيتز. وكانت امرأة من الكابوهات النساء—أي من السجينات اللاتي كُلفن بمهام الإشراف والمراقبة—قد أحضرت مجموعة من الفتيات والنساء إلى ستوديو التصوير. وكان يُنادى عليهن بأرقامهن الواحدة بعد الأخرى، كي يقوم ڤيلهلم برَسِه بتصويرهن.

لم تدرك تَشَسْوَافْا كْفُوكَا أنها المقصودة، حينما نُودي عليها، لأنها لم تفهم اللغة. فالمشرفة كانت تتحدث الألمانية، بينما كانت تَشَسْوَافْا كْفُوكَا تتحدث البولندية فقط. وحينما لم تستجب تَشَسْوَافْا كْفُوكَا، ضربتها المشرفة بهِرَوَاة في منتصف وجهها، فاختلطت دموعها بدمها المتدفق من شفتها المفتوحة.

تطلع ڤيلهلم برَسِه إليها. كانت صغيرة في السن، ارتسمت على وجهها أمارات الرعب والهلع، وبدت غاية في البراءة. قبل أن يصورها، منحها فرصة لتجفيف الدموع من وجهها ومسح الدماء من شفتيها. كان يود مساعدتها أكثر من ذلك، ولكن لم يكن في وسعه أن يتدخل. كانت المشرفة في غاية الصرامة، ولم يكن في مقدوره توقع رد فعلها. ملاحظة خاطئة كانت ستكلفه حياته على الأرجح. ولكنه شعر وكأن الهِرَوَاة قد أصابته هو.

قُتلت تَشَسْوَافْا كْفُوكَا في أوشڤيتز-بيركناو في الثاني عشر من مارس/ آذار ١٩٤٣، وقبلها ببضعة أسابيع قُتلت والدتها.

© 2015 Litrix.de

© 2015 cbj Kinder- und Jugendbuch Verlag in der Verlagsgruppe Random House, München

التقط فَيلهلم برَسِه هذه الصور لتَشَسْوَاقا كْفوكَا في وحدة التسجيل في المعسكر الرئيس في أوشڤيتز.

Copyrighted material

© 2015 cbj Kinder- und Jugendbuch Verlag in der Verlagsgruppe Random House, München

لم يُعرف السبب الحقيقي لوفاة تَشَسْوَاڤا كْڤوكَا. ولكن الوفاة الطبيعية مستبعدة. إلا أنه عند "تسجيل التشييع"، كما كان يُسمى الموت في لغة المعسكر، كان يجب أن يُكتب أن سبب الوفاة طبيعي.

© 2015 Litrix.de